المجلس الرابع والعشرون

الوقف اجتماعيًا

المجلس الرابع والعشرون

الوقف اجتماعيًا

لم يزل الوقف الإسلامي يؤدي دوره الاجتماعي في الحرص على ترابط المسلمين ووحدتهم وتعزيز أواصر الأخوة بينهم، تحقيقًا لمبدأ المعاشرة بالتي هي أحسن وتعزيزًا لجانب الإحسان الذي حثّ عليه الدين الحنيف يقول ﷻ: ﴿وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ۛ وَأَحْسِنُوٓا۟ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥].

وإن من أعظم صور الإحسان الوقف في سبيل الله، وحضارة المسلمين زاخرة بصور الوقف الاجتماعي، ومن ذلك أن المسلمين وقّفوا الأسبلة والأربطة والتكايا، وأوقافا أخرى على الفقراء والمساكين كان لها أكبر الأثر في التكافل الاجتماعي في عصور الإسلام الزاهرة، فنجد السلطان نور الدين محمود زنكي رحمه الله قد جعل أوقافًا للمرضى والضعفاء والأيتام في حلب وفي سائر البلدان الإسلاميَّة الأخرى، وفي مكة المكرمة نَجِدُ أن حديقة كبيرة بجوار الحرم الشريف، تُوقَفُ على الفقراء والمساكين والواردين والصادرين لأداء الحج والعمرة(١).

وممَّا يدل على اهتمام الملوك والسلاطين والأغنياء وأهل الخير بإنشاء الأوقاف التي تخدم الجوانب الاجتماعية لدى المسلمين، ما نُقل عن السلطان المملوكي الظاهر برقوق(٢) أنه جعل وقفًا دارًّا لأجل مكتب يَقرأ فيه الأَيتام القرآن الكريم بقلعة الجبل(٣) وهي القلعة التي يحكم منها الديار المصرية والشامية وسائر البلدان الخاضعة لسلطانه.

---

(١) ينظر: تاريخ مكة المكرمة والحرم الشريف لابن الضياء: ص٢٤٧.

(٢) هو أبو سعيد الظاهر برقوق بن أنس العثماني، الملك الظاهر، أول من ملك مصر من الشراكسة، الأعلام للزركلي: (٤٨/٢).

(٣) ينظر: السلوك لمعرفة دول الملوك، للمقريزي (٤٤٨/٥).

ومن أرقِّ ما وُجِدَ في الإسلام وألطفه ما تحدث عنه ابن بطوطة في رحلته بإعجاب وانبهار، فقال: والأوقاف بدمشق لا تحصر أنواعها ومصارفها لكثرتها، فمنها أوقاف على العاجزين عن الحج، يُعطى لمن يحج عن الرجل منهم كفايته، ومنها أوقاف على تجهيز البنات إلى أزواجهن، وهنّ اللواتي لا قدرة لأهلهنّ على تجهيزهنّ، ومنها أوقاف لفكاك الأسارى، ومنها أوقاف لأبناء السبيل، يعطون منها ما يأكلون ويلبسون ويتزودون إلى أن يصلوا إلى بلادهم، ومنها أوقاف على تعديل الطرق ورصفها لأن أزقةَ دمشقَ لِكُلِ واحدٍ منها رصيفان في جنبيه يمرّ عليهما المترجّلون، ويمر الرُكبان بين ذلك، ومنها أوقاف لسوى ذلك من أفعال الخير(١).

وفي أكثر من بلد إسلامي كان هناك وقف لإعارة الحُليّ والزينة في الأعراس والأفراح، فيستفيد من هذا الوقف الفقراء والعامة بما يلزمهم من الحُلي لأجل التزيُّن به في الحفلات، ويُعيدونه إلى مكانه بعد انتهائها، فيتيسَّرُ للفقير أن يبرز يوم عرسه بحلَّة لائقة، ولعروسه أن تُحلَّى بحِلية رائعة مما يَجبر خاطرهما(٢).

وكأن الهدف من هذه الأوقاف اللّطيفة إزالة الفوارق الاجتماعية بين الغني والفقير ومواساة من قصُرت بهم الحاجة كي ينعموا بالعيش الرغيد والفرح في مثل هذه المناسبات السعيدة.

والأغرب من ذلك، أنه كان بمدينة مَرَّاكش بالمغرب، مؤسسة وقفية تُسمى «دار الدُّقة»(٣) وهي ملجأ تذهب إليه النساء اللاتي يقع بينهنّ وبين أزواجهنّ نفور وبغضاء،

---

(١) ينظر: رحلة ابن بطوطة ص٩٩.

(٢) ينظر: حاضر العالم الإسلامي، شكيب أرسلان: (٨/٣).

(٣) الدقة: التوابل المخلوطة بالملح، والمقصود هنا: الدار التي تَدُقُّ على يد الزوج الظالم المسيء في معاملته إلى زوجه، حتى توقفه عند حدِّه.

فلهنّ أن يُقِمْنَ آكلاتِ شاربات إلى أن يزول ما بينهنّ وبين أزواجهنّ من نفور وخلاف![١]

ورحم الله الإمام الشافعي يوم قال:

الناس بالناس ما دام الحياء بهم ... والسعدُ لا شكَ تاراتٌ وهبّاتُ

وأفضلُ الناس ما بين الورى رَجُلٌ ... تقضى على يده للناسِ حاجاتُ

لا تمنعَن يد المعروف من أحدٍ ... ما دمت مقتدرًا فالسعدُ تاراتُ

واشكُر فضائل صُنع اللهِ إذ جُعلت ... إليكَ لا لك عند الناس حَاجاتُ

قد مات قومٌ وما ماتت مكارمهم ... وعاش قومٌ وهم في الناسِ أمواتُ[٢]

ويستقى من هذه الصور العجيبة للأوقاف:

* ما كانت عليه حضارة المسلمين من تطوّر وتقدّم حتى سدّت الأوقاف الاحتياجات الأساسية من مأكل ومشرب ومسكن وعلاج، ثم قامت الأوقاف بعد ذلك بسدّ الاحتياجات الثانوية كما مرّ معنا.
* تكامل التصور الإسلامي للحياة ووجوب عمارتها، لأن الله جعل آدم خليفة في الأرض كي يعمرها ويقيم فيها شرعه قال ﷻ: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠].
* توازن دين الإسلام في النظرة للدنيا وعدم إهمالها كي لا يكون المسلمون عالة على غيرهم، كما لا يجوز الانشغال بها عن الآخرة قال ﷻ: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ

(١) ينظر: ديوان الإمام الشافعي.

(٢) ينظر: الحضارة العربية الإسلامية، شوقي أبو خليل، ص٣٣٦، ٣٣٧.

ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْأَخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [القصص: ٧٧].

أن الحياة الدنيا مزرعة للآخرة وما يبذره المسلم من قربات في الدنيا يجدها درجات وأجورًا يوم القيامة، قال ﷻ: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة: ١١٠].